

ستقدرونه بما يستحق من
التقدير...!

ولكن واأسفاه على ذلك
الممثل الذى عاش ومات لفنه
وذلك الموسيقى الذى تألم للطرب
غيره...!

لا شيء خلفوه غير هذه
الذكر الفانيات التى ترقد

في ثنايا ذاكرات محبيهم وأصدقائهم
أيستطيع أولئك أن ينقلوا
شيئا من ذكراهم أو يخلدوا رسيما
من تراثهم...؟!

رُبَّ قاتل يقول لك «لا شك
أنك طربت ليلة ما بسمع ألحان
جان دى رسك أو شاهدت تمثيل
ما كرىدى على المسرح؟» فترى
نفسك إزاء هذا القول مضطرا
- سراعاة للأدب ومجاملة للموقف -

إلى قبول هذا الحكم راضيا مختارا
أما إذا كان الحال غير ذلك لأنك لم
تعتد سماع دى رسك أو مشاهدة
ما كرىدى فليس هناك أى أثر في
قلبك أو أى فكرة في نفسك...!

والواقع أن الممثل أنفس حفظا من زميله
الموسيقى... وذلك يرجع إلى وفرة المخترعات
الآلية الحديثة التى ساعدت على إخراج أشجى
الألحان ، وتأليف أجمل الأتغام حتى أن

الحياة البصرية

للفصيح الإنجليزي ستاس أوموتيه
بقلم الأديب محمود المصطفى

تعريف

«ستاس أوموتيه كاتب قصصى بارع
عالج القصة القصيرة فأبدع في حبكها
أبنا لإبداع لجأت بمنعة لما يدور فيها من
حوار شيق في صورة محادثة سهلة بسيطة
على فرار ما يحدث كل يوم في حياتنا
الحاضرة . وتمتاز قصصه بصفات أخرى
عالية - تمتاز بالزواج الرقيق والقوة في
تحليل المواقف الانسانية الثابتة واليول
المختلفة المتعارضة وحده على هؤلاء الذين
نكبوا في حياتهم من جراء الهوى وتبارع
الفرام وعطفه على الانسانية المذبة في
هذه الحياة الدنيا»

وستاس أوموتيه فوق ذلك مصور
بارع ومسرسي قد إذ صادقت لوحاته
وكثير من مسرحياته نجاحا باهرا مما جعله
في مقدمة المؤلفين المسرحيين في إنجلترا
ولكنه أبدع وتفوق في فن القصة
القصيرة وله مجموعة طيبة منها وفارثوه
كثيرون جدا في أوروبا وأمريكا. ووافته
المنية في عام ١٩٢٨

عندما تنتهي بهم الحياة ويبعثهم
الموت إلى عالم البقاء والخلود إذذاك
تقوم ذكراهم من بين السطور التى
خطوها بأناملهم فتذكر الأجيال
المتعاقبة من جنسهم بالأثر الطيب
الذى خلفوه والتراث الجليل الذى
تركوه لهم من بعدهم عسى أن
يكون لحياتهم نبراسا هاديا
ومشكاة لا يخفت لها نور ومنبع
لا ينضب له معين...! ها هو ذا
التذكار الخالد الذى تركه الأديب من
بمده؟ وها هو ذا الأثر الناطق الذى
خلفه المهارى من فنه؟ وهامى ذى
الأفكار الصامتة على الحجر الذى
صاغها النحات من قريحته لتشهد
الأجيال بملوكبه وجمال صنعته!

هامى ذى أعمالهم العظيمة التى لا سلطان عليها
للزمن تخاطبهم قائلة : « احكموا بنى جنسى على
ما قمت به في سبيل خلاصكم وسعادتكم، لا شك أنكم
ستنعمون بما قدمت لكم من تراث ولا شك أنكم

من أنفه الأمور . فثلاً إذا قال لك : ما أجل الطقس اليوم تشعر على الأثر أن تعبيرة هذا يخالف هذه التعابير السائرة المعجوجة التي يتفوه بها الناس في مختلف المناسبات وإنما هي تشبه تلك الأغنية الشجية التي ينشدتها الجنود البواسل عند النصر حيث يودعونها نشوة الفرح وهزة الطرب على ما من به الله عليهم من نصر ومجد أو إذا قال لك : أوه لشد أسنى على أثر إخبارك بإياه بحادث محزن قد حدث لك ، فأنت تستطيع أن ترى الحادث برمته مائلاً لك خلال عيني هذا الرجل المطوف وقد نخضلنا بالدمع السخين ! . . .

خزنه في هذه المناسبة يشبه حزن أجا ممنون على خيانة كايتمنستراه

وفي ذات يوم دعاني لزيارته في بيته المتواضع على حد تعبيرة هو فذهبت فوجدته يعيش وحيداً في عزلة من الناس ، تقوم على خدمته امرأة عجوز راعه إخلاصها ووفاءها له فأبقاها في خدمته سنوات عديدة وغرف البيت تربتها نحف فنية رائعة وصور شمسية تذكارية منبثة هنا وهناك على الجدران والمناضد المستديرة الفخمة . تحققت بهذا النظر مركزه كممثل بارع بعيد الصوت ، فلو كان هذا الشيخ الجليل مصوراً اسهل على أن أحكم عليه من نظرة واحدة خلال لوحاته ، ولكن ماذا تقول في ممثل عجوز قد خصص فكره وحياته لاستعراض الماضي البعيد في ذاكرته وفي استرجاع الزمن الغابر السحيق في ذهنه . حقاً إنه منظر يثير الألم والحزن ويحرك في النفس كوامن الشفقة والشجن ١

وله هناك في أقصى البهو صورة رائمة ممضاة باسم المالفوليو Malvolio وله عدا هذه الصورة صور

النجاح في تلحينها يختلف باختلاف الآلات وإتقان صنعتها ونوع معدنها ولكن الحال مع الممثل الفنان تختلف عن هذا وتباين فلا تنفع الآلة ، ولا الاختراع وإنما اعتماده كله ينحصر في براعة فنه وخفة حركاته وقوة تعبيرة واندماج نفسه في طبيعة دوره . فمن يقول إن جوزيف جيفي سن أو هنري ارفح اعتمدا ليلة مجدهما على آلة أو اختراع ؟ أو أسفاه لقد قضيا في غير رجعة ولا ذكرى وأصبحا في عداد أبطال الأساطير والخرافات !

جالت في نفسي هذه الخواطر المحزنة على أثر زيارة صديقي الممثل السيد كولين برانكر .

قابلته لأول مرة في المكتبة الأهلية فاستهوتني هيئته الوقورة ومشيته المترفة الجليلة

يمتاز هذا الرجل برأس طويل جميل يتوجه شعر أبيض كالثلج . وهو رفيع القامة عريض المنكبين وكنت في ذلك الحين دائم التردد على هذه المكتبة فأجده يلثم تلك المجلات والجرائد التي أريد قراءتها

ابتدأت علاقتي به يوم سألته عن مجلة « استعراض السبت » فأدى هذا السؤال إلى تقديم الشكر والعرفان ثم إلى التحية بالرأس في اليوم التالي ، ثم إلى تبادل الرأي في الطقس ، ثم انحناء جميلة منه إلى ثم السؤال عن صحته من جهتي .

أثارت أخلاقه اهتمامي وراعتي نبيل عواطفه ورقة شموه نحوي . وأنت إذا تحدث إليك هذا الشيخ الوقور ملك عليك حسك وشمورك ، واستهواك بطرف حديثه ونبرات صوته الجمهوري ومخرج ألفاظه الواضح الجميل . يحرك في هذا الرجل نبيل المواطف وسمو الشموه حين أراه بمطف على كل شيء ويتأثر

فأخذته بين يدي ثم أريته إياه وقلت له : ما هذا سيدى الأستاذ ؟

فنظر إلى الرداء نظرة مؤثرة ممتعنة كأنى حركت في نفسه ذكريات صريرة لا قبل له بها وفاجأته بحادث حطم قلبه وهد من كيانه . فلما لاحظت عليه هذا التأثر أشفقت عليه وأخذت أكشف من دمه وأهدى من نفسه وقلت له : « إني آسف أيها الرميل الاشك أن هناك قصة مؤلمة لهذا الرداء ، وكان ينبغي على ألا أثير كوامن ذكرياته في نفسك » قلت ذلك وانتظرت رده على ، فأتجه نحوى وأخذ يرت على كتفى برقة ويقول لى متمباً : « كلا ... كلا ... لا ترعج نفسك هكذا ! ... »

حسناً فمات ... سأخبرك بقصته ولكن فى غير هذه الليلة ... قال هذا وهم قائماً وطفق يمتنى ذهاباً وجيئة فى عرض الغرفة ، وفى صمت شامل وتفكير عميق ، وبعد قليل وقف فجأة أمامى ووضع يده العارية الأشاجع على كتفى وخاطبني قائلاً :

— إيت إلى غداً مع زوجتك لتناول المشاء سوياً ... وإذاك تكون مناسبة سميدة فأقص عليكما مأساة هذا الرداء الصغير الأبيض

وجدت أن زوجتى كانت مدعوة إلى ليلة راقصة فى ذات الليلة التى دعينا إليها من السيد برانكر ، فلما أخبرتها بدعوته لم تردد فى إلقاء دعوة الليلة الراقصة لتستطيع أن تذهب مئى إلى هذا الشيخ الكريم . وقلت لها إن السيد برانكر رجل متوسط الحال وبيته متواضع خالٍ من مظاهر الترف والنعيم فلا تكنئى نفسك مشاق ارتداء ثوب السهرة الثمين ولا سيما أن الدعوة خاصة بنا لا كلفة فيها ،

أخرى تمثله فى شخصيات مختلفة من مسرحيات شكسبير الخالدة وفى مواضع أخرى من البهو صور لرميليه نول وهنرى آرفنج وصور عديدة لمختلف المثليين بعضهم من أعلام الفن والبمض الآخر لم أعرفهم

فهمت من سياق حديثه الممتع أن أمه كانت ممثلة فرنسية بميدة الصوت فى عالم المسرح ، وهناك على البيان تقوم صروحة فنية فى وضع جميل قد أهدبت لها من الامبراطورة أوجينى Eugénie تقديراً وتشجيعاً لها . ولم يحدثنى قط عن أبيه . خرجت من عنده حاملاً أجمل الذكريات العزيزة وعولت على زيارته كل ليلة سبت من ليلالى الأسبوع . ففعلت حتى توشجت بيننا علاقة وثيقة ! وما زلت أزوره إلى اليوم وفى كل مرة كان يطلمنى على مقتنياته الفنية وصوره التذكارية حتى انتهينا منها جميعاً فبعد ذلك إلى القماطير وأنى لى ببقايا آثار قديمة من القماش الثمين المطرز بأسلاك الذهب الخالص وأخذ يشرح لى تاريخ كل قطعة ومناسبة إهدائها له وكيف احتفظ بها حتى اليوم يستمين بها على استرجاع الماضى البعيد كلما تآقت نفسه الصادية إلى استعراض الذكريات الحبيبة ، ذكريات الأمل والشباب ! ...

وفى ذات ليلة لفت نظرى رداء صغير أبيض اللون دقيق الصنع رقيق النسيج ، ونظراً لرفع الكلفة بيننا استبحت لنفسى أن أسأله عن هذا الرداء الصغير الأبيض وهو ليس له بنات صغار حتى يقتنى مثله . لا شك أنه رداء لطفلة صغيرة . ومما استوقف نظرى أيضاً أنه كان ملفوفاً بعناية فائقة ومحفوظاً فى مكان خاص به منفرداً عن جميع القطع الأخرى ...

ولا رسميات ولا قواعد يمكن أن تؤاخذ عليها، ولكن أقوالى كلها ذهبت أدراج الرياح، وفجأة بدت زوجتى فى حلة جميلة كأنها ستذهب إلى حفلة ملكية ساهرة فلم أحتج ولم أعارض - لأن التجارب قد علمتني أن لا فائدة من الاحتجاج أو المارضة إذ تبحر إلى شقاق وآلام لا موجب لها . فارتديت ملابسى العادية فبدت بجانبها شاذاً متفقداً من كل من يرانا من الأصدقاء أو المعارف

وشئ آخر زاد من إحراجى ودهشتى مما . ذلك أننا عند ما ذهبنا إلى دعوة هذا الشيخ وجدته مرتدياً هو الآخر لباس السهرة الرسمي جلسنا على هذا الحال نحن الثلاثة حول مائدة كل أدواتها كانت من الفضة الثمينة والبلور الشفاف الجميل، وكان يقوم على خدمتنا المرأة المعجوز على أن نيأى وهيئتى فى هذه الليلة مما أتر فى نفسى أبلغ الأثر وأعظمه حتى نغصت على جملة نادرة ممتعة ووقتاً سعيداً مع هذا الرجل إذ كنت أشعر بأنى غريب عنهما وأنى لا يجوز لى أن أشارك معهما فى الحديث ...

دلتنى مظهر الوليمة ومبلغ نجاحها على لون حياة هذا الرجل ... لاشك أنها من هذا النوع الرفيع الذى يحياه قلة الناس من الهيئة الأرستقراطية ... وبعد الطعام دعانا مضيفنا إلى الجلوس حول الموقد حيث نطلى بدفته اللذيذ فى مثل هذه الأيام من الشتاء الفارص ، وإذ نحن كذلك حول الموقد خاطبنا قائلاً : « ليدعنى أولاً سيدتى وسيدى أن أقدم لهما قليلاً من هذا الشراب الممتاز الذى أهداه لى صديق مقدس الذكرى عندي ... » قال هذا ودلائل التأثير بادية على وجهه فهزت من نفسه ...

وقدم لى كأساً من المشروب المزج واعتذرت زوجتى عن قبوله ولكنه ألح عليها إلحاحاً شديداً حتى قبلته أخيراً فنم بهذا الانسجام ، ثم استوى على مقعده شارد الفكر مضطرب الجوانح . وبعد برهة من الصمت الرهيب قالت زوجتى : « الآن يا سيدى أريد أن تربى الرداء الأبيض الصغير » فرداً عليها بأنحاءة كلها احترام ورقة ثم اتجه نحو البهو وجاء بالرداء ثم نشره، وهو واجم لا ينبس ببنت شفة، على مسند المقعد فقلبنا فيه النظر هنيهة قصيرة ثم قالت أليس : « ما أجمله من رداء وأروع من ذوق ... » فرأينا مرة واحدة يخفى وجهه بين يديه وأخذ ينتحب تحجب الحبيب الأطفال فصمتنا أما وأليس إزاء هذا المشهد المؤثر الجليل ... يا لله ... ! ما أضغف القلب البشرى ... ! يا إلهى ... لم أودعت هذا القلب كل هذه الرقة ... ١٩

لبث هذا المنظر الرهيب زهاء الدقيقة ثم رأينا الرجل يشوب إلى رشده ويمارده الكلام ثم استطرد فى حديثه قائلاً : « ترجع يا أولادى حوادث هذه القصة إلى زمن ليس بالقصير ... حدثت أيام الشباب الغابر فى جيل غير جيلكم وزمن غير زمانكم

أظنكم تذكران فرقة الممثل الدائع الصيت « شارل كارسيد » التى كانت تجوب فى الأقاليم إذ ذاك والتى كان يستقبلها الجمهور الراقى الحساس بكل حماس وتشجيع ... وكيف لا ... وهو حين كان يشاهد رواياتها تمثل على مسرحها يلذ له أن يرى نفسه فى كل حركاته وسكناته ... فى كل عواطفه وزعاته ... يرى فيها ميوله وآراءه وآماله وأتراحه وأحزانه وأفراحه ... آه ... لقد ذهبت هذه

هناك أشياء مقدسة عزيزة على النفس رهبة على القلب لا يستطيع الإنسان أن يمد تلاوتها حتى ولو إلى القريين من أصدقائه ومحبيه !
لا أخفى عليكم حقيقة شعورها نحوي ...
إذ كان شعوراً عادياً لا لوعة فيه ولا حب ... !

وأخيراً رفضت طلبي معذرة في رفق وحنان آه ... ! كم كانت رقيقة العاطفة رهيفة الشعور حبيبة إلى كل قلب كريمة على كل من يحيط بها من الناس الحق أني سمعت عند سماع رفضها حتى أظلمت الدنيا في عيني وكدت أقتل نفسي من اليأس !

ما أعجب أمر الشباب ... ! يريد أن يحظى بكل شيء في التواضع والحظوة والإجنحة إلى اليأس والقنوط . ومع ذلك كنت أتردد عليها الليل والنهار طوال أسبوع عسى أن أحظى بالرضا وأستولى على قلبها ولكن كانت كل مساعي فاشلة وفهمت في النهاية أنها تشفق وتحب عليّ ولكنها لا تحبني ... !

عند ذلك ذهبت لزميلي أوبن وقلت له : « الآن قد آن لك أن تلعب دورك ... لقد فشلت ... فهيا ... ! فلم يقبل في بادئ الأمر ولكنني ألححت عليه حتى رضى وذهب !

جاءني السديق وقال لي وهو مضطرب البال : « زميلي ... أنا لا أستطيع أن أتبين عواطفها نحوي ... هي تشفق عليّ ولكنها لا تحبني ... ! فمعجبتنا لهذه المرأة الغامضة المعلقة القلب ... ومع ذلك لم نياس فزمننا أن نصارع عواطفها في ميدان أكثر صراحة وأوسع رحابة حتى يستولي عليها أحدها أو تفقدها معاً ... فرحنا نظاردها أينما ذهبت وأخذنا نفشى الأبهاء التي كانت معتادة التردد عليها تمجدونا عاطفة واحدة ويجمع بين قلبينا القصد الخالص الشريف والفكرة النبيلة ... !

إزاء هذا الإخلاص البري، وهذا الوفاء التبادل النبيل قرر رأينا أن نترك الأمر يلعب به الحظ ويداعبه القدر ... ! فعمدنا إلى لعب الورق ولكن بعد دور أو دورين تبين أن كلينا كان يلعب في غير اهتمام ليدع الآخر يريح ليفسح له الطريق

وبعد قليل عزمنا على لعب الشطرنج، وفي بضع دقائق رأينا أن اللعب كان صورياً لأن كلا منا كان يحاول أن 'يقلب' ...

فضقت بذلك ذرعاً وقلت لزميلي : « يجب علينا أن نخضع لحكم القدر الزيه ، وهذا يتوفر في هذه الزهرة القائمة في هذا الأصيل . فإذا كانت ورقاتها زوجية فهي لك ، وإذا كانت فردية فهي لي » فقبل هذا الحكم . فتناوت الزهرة الجميلة بين يدي وأخذت أزاع ورقاتها ورقة ورقة وأنا شارد اللب مضطرب الجوانح ، وطفقت أعدها أمامه وهو شاخص البصر موزع الفكر حتى بلغ عددها الثامنة والخمسين . وعند ما رأي آخر ورقة تكمل العدد الزوجي سقط على كرسيه مفتشاً عليه وعلت وجهه صفرة الموت ، فذعرت ثم نهضت وفدمت له كأساً من شراب منعش فاستغاق وأخذ يتوب إلى رشده شيئاً فشيئاً

كان الوقت قد جاوز الفجر بقليل والناس نيام والحركة واقفة في كل مكان . ثم خرجنا إلى الشارع فإذا بزميلي منبسط الأسار يطافح البشر لهذه النتيجة وفي الساعة الحادية عشرة من صباح هذا اليوم كنت بين يدي محبوبتي صوفي أسكب لها كل ما في قلبي من عواطف شاردة وحب صادق وإحساس نبيل ظل محبوساً في صدري زهاء الشهرين ...

وبعد ما انتهيت من كلامي شعرت بشيء من الراحة والسكينة لا أستطيع وصفهما ... ! إذ أن

هي لن تزوجه الآن وهو على هذا الحال من الثراء لأن الناس سيمتقدون أنها تزوجته لما له غصب . . وإن أنس لا أنس هذه الآلام التي أقضت مضجعي طوال أسبوع من الشتاء ، كنت خلاله موزع الإحساس بين إقناع « صوفى » وبين حبي لزميلي « أوبن » ولشد ما تأملت له ورثت لحاله حين كان يراها تصر كل الإصرار على رأيها رافضة كل مسمى لقد صرعت الثروة أوبن فأدمن الشراب وأمرف في لعب اليسر ، وسلك طريقاً شائناً شائكاً حفة قصيرة من حياته الطاهرة من جراء هذه الطعنة المفاجئة !

خشيتُ على شبابه أن يذوى مبكراً وهو في ريعانه فلم أجد علاجاً سوى أن أبحث له عن امرأة أخرى تزوجه وهي لا شك تقبله لجأه وثروته ، فوقفت أخيراً إلى فتاة جميلة نبيلة القلب كريمة النفس تدعى أنا بللا . فتزوجا ووفقا في حياتهما الزوجية توفيقاً كبيراً ، وبعد عامين من قرانهما رزقا طفلة قرا بها عيناً . . . ! لقد خبرت قلب المرأة وحملت أخلاقها في هذه الفترة فرأيت منها العجب . رأيت صوفى التي رفضت الزواج من أوبن لأنه كان غنياً والتي كانت ترند فرائصها حين ترى أنا بللا زوجته ، رأيها تتحول بكل حبها وإعزازها إلى الطفلة ابنتها فأفاضت عليها من حنانها وعطفها كل قطرة من قلبها . . . انقطع أوبن عن العمل في الفرقة وتفرغ لحياته الزوجية . ورجعنا أنا وصوفى إلى العمل في المسرح ، فحاولت أن أوقعها في شركي هذه المرة إذ أصبح الطريق خالياً لي فلم أوفق مطلقاً - كنت عبداً طول عشر سنوات كانت هي خلالها أسيرة

لبثت مطاردتنا على هذا ثلاثة شهور كانت نهايتها انتصاراً وتوفيقاً إذ أحبت صوفى صديقي حباً شديداً حتى أصبحت شديدة التعلق به فلا تستطيع فراقه . .

وما كان أشد فرحى وأثج صدرى - يشهد الله - عند ما كنت أرى صاحبي سعيداً رضى النفس قرير العين باسم الثغر بهذا الانتصار العظيم الذى قدرلنا . . . ! وما كان أسعدنى حين يقص على كلأها العذبة ويشرح لى تبل عواطفها ، وبراءة نفسها العزيرة . . . !

بعد ذلك حدث ما لم أكن أتوقمه . . . قال هذا ثم استوى على مقدمه ، وصراً بأنامله المرتمة خلال شمره الأبيض الناصع فى حركة كلها رقة وحنان . . . ثم استطرد قائلاً : « حدث أن عمأ لأوبن قد مات فى استراليا ، وخلف له ثروة طائلة كان قد جمعها قبل وفاته بجهده وبخله الشديد . علم أفراد الفرقة جميعاً الثروة المفاجئة التى حطت على أوبن وطرب له الجميع سوى شخص واحد ظل منزوياً فى حيرة ومنعزلاً فى ألم . . . ! » ثم حلق بنظره نحو زوجتى وزفر زفرة طويلة ثم قال : « لقد عشت طويلاً فى هذه الحياة وذقت حلوها ومرها ، ولكن وأأسفاه لم أزل لا أستطيع تعرف ميول المرأة أو استكشاف أسرار قلبها الغامض المغلق . . . !

هى أشبه بهذا الصندوق السحري الذى لا نعرف ماذا يضم فى داخله . . . ! إن قلبها لا خد له ولم يزل الرجل عاجزاً عن تحديده أو تعريفه . . . !

قد تدهشين إذا علمت أن صوفى رفضت الزواج من أوبن . . . لا لسبب آخر غير ثروته المفاجئة . . . ! هى لا تحبه إلا فقيراً مثلاً يعمل بجانبها فى فرقها !

الشيخ الوقور وبدأ في بأس شديد حتى سحت
مدامه ومدامنا رثاء لهذا الصديق العزيز !
وبعد قليل هدأ وكف عن البكاء ثم قال في لوعة
وتأثر :

بهذا الحادث المحزن طويت أسعد أيامي وأجل
أوقاتي في كل أدوار حياتي !

كما زاد هذا الحادث من حب صوفي للطفلة
« لوسي » حتى أصبحت لا تطيق لها فراغاً ! كانت
لوسي تعيش مع أمها في خفض من العيش متقلبة
في أعطاف النعم إذ ورثت عن أبيها تلك الثروة
الطائلة المشؤومة

درجت الطفلة وشبت في هذا الجو الخائق جو
الهدوء والنمومة والترف فحشيت صوفي عليها من هذا
الوسط وحاولت من إصلاحها وهدايتها إلى سبيل
الفضيلة وعمت كل مافي استطاعتها تهذيبها وتقريبها
لتجعلها مسورة أبيها وقطعة من حبيلها الفاضل
الكريم ، ولكنها فشلت في كل محاولاتها إذ كان
في الطفلة اعتماد لتكون على غرار أمها في تقديس
حياة الهدوء والمجون . شبت الطفلة غريبة فاسدة
الخلق مدللة ماعمة تقضى كل أوقاتها في اختيار
ملابسها وتجميل وجهها وتصفيف شعرها على كل
الأنماط . تحاول وهي في هذه السن المبكرة البريئة
أن تعجب الرجال بحركاتها وخفتها ورعوتها ورشاقها
فدرجت وفي نفسها هذه اليول البتسرة والشهوات
الباطلة والنزعات السافلة لما يحيط بها من إعجاب مزيف
من الرجال وتدلل مصطنع من مفرريها !

حقاً لقد كانت تبهر الأنظار بجملها الذي ورثته
عن أبيها وتسبي القلوب بأحاطها الفتانة وتسحر

لحب طفلة صديقي أوبن ... ما أعجب هذا القلب !
كنت أراها تنفق كل دائق على الهدايا والهدى
الصغيرة والملابس الرشيقة لتقدمها إلى الطفلة ...
قد يبدو ذلك غريباً ولكن الحقيقة كانت كذلك !
ولأول مرة طفلة هذا الحديث قالت زوجتي :
« ليس في الأمر غرابة ... ! » فشاعت على وجه
برنكر بسمة ثم على الدهاء والرقه ممّا ... ! ثم قال :
« كنت أحاول أن ألقها إلى حبي بشقي الوسائل
ولكنها كانت منصرفه عني بكليتها إلى شؤون الطفلة
أجل ... ! إن الرجل في كل علاقته مع المرأة
يجد نفسه المغلوب على أمره دائماً ! تطوى المرأة
في نفسها تلك الإحساسات الغامضة التي تعينها
في غير واسطة على فهم حقيقة الرجل وصدق عاطفته
ودخيلة نفسه وتوازغ قلبه ! منحها الطبيعة هذا
الشعور نظراً لضعفها ونظراً لقوته !

تمرفت صوفي بأنا بلا وتوثقت بينهما عرى المودة
فأصبحتا صديقتين غلمستين ، وأخذت صوفي - كلما
ثمنا برحلة خارج المدينة - تبعث لها الرسالة تلو
الرسالة مودعة إياها كل عواطفها وأشواقها

صرت الأيام سراعاً ونحن على هذا الحال من
الملافة حتى حدثت الفجيرة الكبرى : لقد قضى
أوبن بعد عامين من زواجه إذ قام ذات ليلة - على
أثر توعك خفيف قد شعر به - ليتناول بعض
المنشآت فأخذ وهو في حمى المرض بعض الزجاجات
التي تحوى سائل الأدمونيا الخاص بالتصوير إذ كانت
زوجته مولعة بهذه الهواية -- فانطلق مذعوراً إلى
الطريق العام وهو بملابس النوم ولكنه لفظ النفس
الأخير بين ذراعي أحد الشرطة الذي استغاث به !
ارتسمت صورة هذه الفجيرة على عيا هذا

الرجال بلباقتها في الحديث وإتقانها التراسق بالنكات والفكاهة !

فكروا يا أولادى فى طفلة لم تتجاوز العاشرة من عمرها ولا هم لها إلا العناية بالثياب والتجمل والمرح اللاجن واللهو الآثم !

كانت هذه الطفلة الصغيرة تحب « الممة صوفى » لأنها كانت تجزل لها الهدايا والملابس فى كل المناسبات . ولدى هنا فى هذا الصوان عدد كبير من الأردية والمعاطف الجميلة كانت صوفى طيب الله نراها قد غزلتها وحاكتها خاصة للطفلة وردت إلى بطريق ليس المقام مناسباً لذكره . ثم قال مستطرداً : « ما أبلغ الأثر الذى تلبسه الأزياء والملابس فى حياتنا اليومية ... لقد أصاب كارليل جادة الصواب حين ردد هذا القول الحكيم الذى ينطوى على معان كبيرة !

والواقع أن صوفى كانت ماهرة جداً فى حياكة الملابس وأشغال الإبرة ؟ قد برزت أقرانها فى هذا الفن الجميل فأصبحت يشار إليها بالبنان حتى ذاع صيتها بين الأوساط الرفيعة

فأجبت لوسى حالتها لهذا السبب لأنها كانت تعجب بالمعاطف والأردية التى كانت تصنعها أناملها الفتاة وذوقها الرفيف !

ومأساة هذه القصة التى أحاول أن أسردها عليك الآن قد حدثت لالسبب غير أحد هذه المعاطف التى حاكها صوفى وذبحت صريعتها !

قال هذا وضرب بيده البيضاء الجميلة على المائدة ثم استأنف قائلاً : « حدث أن لوسى بلغت العاشرة من عمرها وتريد أمها أن تقيم لها ليلة راقصة احتفالاً بعيد ميلادها السعيد تدعو إليها أترابها وأكابر القوم

من محبيها وصفوة القوم من الهيئة الأرستقراطية فى البلاد !

وصل إلى زميلتى صوفى ونحن فى إحدى طوفاتنا فى الأقاليم رسالة من لوسى ترجوها فيها أن تعمل لها رداء جميلاً تكريماً لها فى هذه المناسبة السعيدة وأنها تريد أن تكون به محل أنظار المدعوين جميعاً ! ابتسمت « صوفى » ابتسامة الرضى والقبطة لهذه اللجة البريئة وهذه اللغة الساذجة . وأشهد أني لم أرها أسعد حالاً وأغبط نفساً منها فى هذه الفترة التى تلت قراءة هذه الرسالة . هزتها حمى الطرب فراحت فى كل مكان تغنى وتشدوا !

وصل إلينا هذا الخطاب بينما كنا نطوف الطوفة الشتوية فى الأقاليم وكان الطقس قارس البرودة فأصيبت صوفى بحمى شديدة تحولت بعد قليل إلى نزلة شعبية حادة، ولولا العناية الإلهية لكانت قد قضت . كانت ضعيفة جداً فى الفترة التى تلت هذه الحمى فلم تقو على العمل ولكنها كالخت وصارعت كيلاً توقف العمل فى الفرقة ولكى تستطيع أن تتجزز الرداء الحبيب قبل ليلة العيد ... !

كنت أراها دائماً التفكير فى هذا الرداء وكيف يكون وتفصيله ، وبعد أيام قلائل نادتنى على حين فجأة وقالت لى بنبرات مرتمدة « زمبلى برانكر لقد انتهيت من إعدادة فى فكرى، ترى ماذا يكون شكلة فى هذه الليلة الراقصة ... ! سأختار له لوناً أبيض لازرنة فيه ولا رسوم من أى نوع، تصور فيه لوسى إذ آبين أترابها اللاتي يرتدين الأثواب المزركشة والمعاطف المزينة بمختلف الألوان والأشكال !

نعم سأختار له لوناً بسيطاً جداً وهو اللون الأبيض رمز الطهر والمغاف فى ليلة الرفاف ... !

يتساقط مدراراً على النوافذ والرياح الماصفة تفر
بشدة في الخارج »

وهنا وقف برانكر وأخذ الرداء بين يديه
برقة فائقة وأخذ يمثل لنا هذه اللأسة أمام أعيننا !
قال : « انتهت صوفي من صنع الرداء فناولتني
إياه وقد انفرج ثمرها الجميل عن ابتسامة تعبر
عن الرضاء والذبطة ! وأوصتني أن أسلمه لها في يدها
وأن أراها وهي مرتدية به بين أترابها وأن
أعرف مبلغ استحسانها إياه وفخرها به بين القوم !
ثم رأيتها تأخذه مني فجأة وأخذت تقبله قبلات
حارة وهي دامة العين لا هنة الصدر حتى أشفقت
عليها أن تفر الزفرة الأخيرة وهي على هذا
الحال — وبعد ما هدأت قليلاً أخذته منها في رفق
وقد أخذتني رعدة شديدة من جلال الموقف ! ...

خرجت من البيت في الساعة السابعة إلا عشر
دقائق والرداء بين ذراعي وأخذت أهي على وجهي
في الطرقات

ركبت عربة لتصل بي في أقصى سرعة إلى بيت
لومى حيث الحفلة ؛ ثم أعطيت السائق العنوان
ورجوته أن يسرع بأقصى سرعته ... وبعد نصف
ساعة وجدت نفسي أمام البيت المنشود ثم نزلت من
العربة والرداء بين يدي كطفل محوم وصعدت السلم
وناديت : لومى ... لومى ... فوجدتها في غرفة زينتها
مرتدية ثوباً برتقالى اللون مفضض الحواشي وتضع
على رأسها تاجاً من الزهور البيضاء الجميلة مما زاد في
حسنها وروائها، وكانت تنظر لنفسها في المرآة لكي
تلقى آخر نظرة على زينتها وهندامها ... وعند ما رأته
صاحت وقالت : هالو ... هالو ... آه وأسفاه

سأحمل المدعويين والمدعوات على الإعجاب به ... !
استحسنفت فكرة صوفي واصطحبتها إلى السوق
لنبتاع القماش ولكن ما كدنا نصل إلى محل أزياء
حتى أغمى عليها لشدة ضعفها، والواقع أنها كانت
تتحامل على نفسها للقيام بالواجب نحو الطفلة المحبوبة !
وفي خلال يومين من هذا الحادث تحققت
خطورة مرضها وأن حالتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم.
والحقيقة أنها كانت تعيش على قوة أعصابها وشدة
عزيمتها فحسب ، إذ كان كل إرادتها منحصراً
في إتمام هذا الرداء ليتسنى للومى إرتدائه في الحفلة
الراقصة لمعيد ميلادها !

انتهينا من رحلتنا في الفرقة ووصلنا لندن في
يوم عيد الميلاد. وكنت شديد القلق على حياة صوفي
إذ كنت أراها ترد حياض النية على رود ومهل ،
فوجهها شاحب اللون وعيناها جاحظتان، ومع ذلك
كانت يدها المرتعشة تعمل في الثوب بسرعة فائقة
ونفس راضية مستبشرة وعزيمة قوية لا تعرف السكل
أقلتنا العربة إلى أحد الفنادق وأرادت صوفي
النزول منها فلم تقو على حمل نفسها فأخذتها بين
ذراعي وأنا واجف القلب مستطار اللب على حياتها
وصعدت بها السلم ثم وضعها على السرير في حالة
إنعماء شديد ، وبعد دقائق معدودة رأيتها في شبه
غيبوبة وأخذت تهذى وتنفوه بألفاظ لم أتبين منها
إلا اسم أوبن ترى ولومى . وبعد ساعتين من هذه
الحى الخطيرة استفاقت ونابت إلى رشدها ثم رأيتها
تقوم فجأة وفي قوة عجبية وأخذت تبحث عن الرداء
بذعر وخوف فناولتها إياه إذ كنت أحمله بين يدي
ثم شرعت في إتمامه وهي مرتعدة المفاصل مرتجحة
الأعصاب ... كان الليل قد أرخى سدوله والثلج

مكان، والبرد قارساً فأخذت أعدو في كل مكان عدو
المجنون به مس من الشيطان وقلبي مضطرب ...
فوقفت في ركن من الشارع وأنا حزين مكتئب
النفس لا أقوى على حمل نفسي ... أأرجع إلى صوفي
وأخبرها بهذا السكران أم أ كذب عليها وأخفي
الحقيقة ...

صوفي حبيبتى - كيف أراجع إليك؟ آه لا شك
أنك منتظرة قدومى لأخبرك بفرح لوسى بالثوب
لقد رجوت من الله أن تموت صوفي وهى على
هذا الحال من السعادة والأمل ...

تمنيت لها أسعد الأحلام في آخر ساعاتها ...
وبقيت أنا وحدى أتألم لخيبتها وفشلها ... لا شك
أنها الآن تحلم برؤية لوسى وهى مرتدية الرداء وتفأخر به
أربابها ومهنيتها ...

أسكنك الله يا صوفي أنت وحبيبتك الأول
صديقتى ترى - فسيمح جناحه ، وطيب الله رآك
في مثوا كما الأخير ...

لترقد رقة الخلود فى أمن وسلام :

محمد المرصني

لقد ظننت أن الخالة صوفي قد نسيتنى فلم تعد تتحفظنى
بهذا حبلى المتأزاة وعلى أى حال لقد ابتعت رداء
جيداً من محل (زوكوس) فقلت فى تأثر عميق :
« طفتنى العزيزة ... ها هو ذا الرداء الذى صنعتك لك
خالتك صوفي وهى تجهد نفسها لإتمامه لك فى يوم عيد
ميلادك كما قلت لها فى رسالتك. وهى ذى تبر بوعدها
وتكلفتنى حمله لك . ولقد حال المرض المضال بينك
وبينها . وكما كانت تود أن تحمل لك بنفسها فى هذه
المناسبة السعيدة ... »

ثم نظرت إلى فى غير أكثرات وتناولته منى
فى غير احتفال وأخذت تفحصه بكلتا يديها ثم قالت :
« ما هذا الرداء الخالى من الألوان والزهور ... !
هذا زى عتيق لا يليق بى وأنا الفتاة الصغيرة التى
تحب الألوان الزاهية المتألثة ... ! قالت هذه الجملة
ثم ألقته على مدى ذراعيها فى أقصى الغرفة ... !

كدت أخرج عن طورى فأصغع هذه الطفلة
الجاحدة جزاء على سفاهتها ووقاحتها ، ولكننى
تذكرت فى الحال صديقتى وأنها هى الذكري الوحيدة
التي نعتز بها منه ...

ولكن لم أتمالك نفسى وقلت لها : « ما أ كفرك
من طفلة غريبة ... ! إنك لو تعلمين كيف صنعت
لك خالك هذا الثوب ... ! إنك قتلت نفسك سامية .
لقد ذابت ونحطمت لأجلك ... ! » فهزت رأسها
الصغير استهزاء كالكبار تماماً وضغطت على الجرس
لاستدعاء الوصيف لإخراجى من البيت. اندهشت
اندهشت من هول هذا الموقف وتلعم لسانى فلم يقو
على الكلام ، ثم رأيت نفسى خارجاً من البيت أتمم
بكلمات اللفة والغضب على الإنسان وجحوده ... !
كان الوقت ليلاً ولم يزل الثلج يتساقط فى كل

آلام فرتر

للمؤلف الفيلسوف جوتة الأولمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونعنها ١٥ قرشاً